

المرأة وشواغل الواقع الاجتماعي والثقافي في سيرة زهور ونيسي

Women and preoccupations with social and cultural reality in the autobiography of Zohour Ounissi

الدكتور نورالدين سعيداني* - جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل (الجزائر)

ملخص:

فُيِّضَ للمرأة أن تنتج أدبا وتمتلك الجرأة لتكتب سيرتها وتجاربها الانفعالية، وأن تحظى باعتراف الساحة النقدية، فجسدت صور الأنثى واستوعبت احتجاجها الغاضب على أوضاعها الاجتماعية وعمق المواجهة التي تخوضها محاولة إثبات وجودها إلى جانب الرجل وإطلاق صوتها الخاص لقراءة ذاتها وسط نمط اجتماعي سائد وتحولات سياسية وثقافية، ومن ثم فإن الإبداع النسائي يعيد قراءتنا ويواجهنا بشراصة أحيانا، وهو يكشف بعض ما في مرحلتنا الثقافية من أقنعة، ومن تحولات جارية في قلب مجتمعاتنا.

وقد حاول هذا البحث الوقوف عند تجربة الأديبة زهور ونيسي في سيرتها الذاتية "عبر الزهور والأشواك؛ مسار امرأة" التي صدرت عن دار القصة فيما يقارب 500 صفحة، ليوضح من خلالها شواغل المرأة الجزائرية وقضاياها الاجتماعية منذ ثورة التحرير، بحثا عن أفق أوسع للحرية، تحقق المرأة فيه توازنها المفقود بين ذاتها الداخلية، وذاتها الاجتماعية، وسط مجتمع ذكوري، خاصة وأن زهور ونيسي مجاهدة ومعلمة وأديبة وسياسية؛ فهي تلميذة مدرسة بن باديس، تنتمي إلى الفكر الإصلاحي الذي واءم بين المحافظة والتحديث، بين قيم الإسلام، وقيم المعاصرة، بعيدا عن استنساخ النموذج الغربي المُملى لصورة المرأة المتحررة من كل شيء، وبذلك تعرضت الدراسة لعلاقة المرأة بالرجل من خلال مواجهة الاستلاب الذكوري وقضايا الزواج والطلاق وإنجاب البنات، كما وقفت الدراسة عند تعليم المرأة وعملها وموقفها من القضية الوطنية وكلها منافذ لتحررها وتحقيق ذاتها.

الكلمات المفتاحية: السيرة- المرأة- الزواج- الطلاق- التعليم.

Abstract:

It was possible for women to produce literature and possess the courage to write their biography and emotional experiences, and to gain recognition from the monetary arena. She embodied the female images and absorbed her protest against her social situations, trying to prove her presence alongside the man and making her voice heard to prove herself in a social reality.

This research attempted to stand when the writer ZohourOunissitried in her autobiography "Through Flowers and Thorns", to explain through it the concerns of Algerian women and their social issues since the liberation revolution to search for a horizon of freedom, in which the woman realizes her inner self, and her social self, in the midst of a male society, especially as the writer is a struggling, educated, and politician; She is a student of the IbnBadis school, which has paired the values of Islam with the values of modernity.

The study exposed the relationship of women with men through confronting male looting and issues of marriage, divorce, and childbearing, and the study also touched on the education of women, their work, and their position on the national issue, and all of these issues are outlets for achieving freedom and self

Keywords: autobiography - women - marriage - divorce - education.

مقدمة:

تحتل قضية المرأة جانبا مهما من تاريخنا السياسي والاجتماعي والثقافي وهو جانب حافل بالكفاح والصراع في سبيل قضية من أهم قضايا الوطن والمجتمع والفكر لا في الجزائر وحدها، بل في الأمة العربية كلها، وأي قضية من القضايا لم تأخذ من العمل والجهد ولم يحدث فيها من مصادمات الرأي والفكر مثل ما حدث في قضية المرأة، ذلك لأن قضية المرأة عندنا لم تكن مجرد مسألة خاصة بالوضع الاجتماعي للمرأة ومشاركتها الفعالة في الحياة العامة، ولكنها قضية المرأة والرجل على السواء. (خليفة، إ. 2008: 11)، وقد كشفت النصوص الروائية الجزائرية عن الهواجس التي تؤرق المرأة على الصعيدين الشخصي والعام. فلا يخلو نص من طرح شواغلها، كالحديث عن عوالم الأنثى وعلاقتها بجسدها، ولم تقتصر الكتابات على عوالمهن الذاتية؛ إذ لم يكن بمنأى عما يحدث في مجتمعهن فنقلن قضايا أمتهن السياسية، ومتغيراتها الاجتماعية والثقافية، وأثر كل ذلك على وضع المرأة المادي والفكري والنفسي. ويمكن القول بأن التجربة المعالجة في كثير من الروايات النسوية هي تجارب ذاتية لصاحباتهن، بيّنت حماسهن وجراتهن على ارتياد حقل الكتابة بصورة تخلّصت من الاحتراز، وواجهت الرجل الذي يشغل موقع الخصم في أغلب الإبداعات النسائية.

وقد فرضت الأدبية زهور ونيسي على نفسها تصوير حياة شعبها اليومية بما فيها من هموم وتشابكات خاصة بكلما يتعلق بوضع المرأة وعلاقتها بالرجل، ووضع الناس في مواجهتهم المحتل، بدءا من روايتها "من يوميات مدرّسة حرّة". وقد ومثل الواقع في رواياتها رافدا عميق للإشكاليات فاخترت من نسائه صنوفا من الحرّيم. يضاف إلى ذلك أن الكاتبة دمجت تجربتها الذاتية مع هذا الواقع فكانت تجربة الذات تجربة نسوية جماعية، فالمحصلة النهائية معاناة المرأة بوصفها ضحية تبحث عن طريق تحررها داخل مجتمع متحيز. ولعل مذكرات ونيسي الموسومة بـ "عبر الزهور والأشواك؛ مسار امرأة" أن تشكل نصا صريحا على الدعوة إلى خلق المناخ الصحي لعيش الرجل والمرأة في مجتمع سليم. فالإي مدى امتلكت زهور ونيسي الجرأة في الكشف عن واقع المرأة ومسيرة كفاحها؟ وكيف جسدت صورة المرأة في مواجهة مجتمع ذكوري؟ وهل قدمت صورة إنسانية بديلة عن المرأة النمطية المستقرة في الوجدان الجماعي؟

2. الدوافع العامة لكتابة هذه المذكرات:

يأتي عنوان السيرة "عبر الزهور والأشواك" كشكل اختزالي للنص، ليبين مسار امرأة لم تبلغ ما بلغته على بساط من الزهور، بل مشت على طريق مدمى من الأشواك، مكرسة تحدي المرأة وإصرارها. فالكاتبة تتردد إلى ذكرياتها وقد اكتسبت عمقا وخصبا، لتقول لنا من خلال ميثاق سير ذاتي: "أريد له (قارئ) أن يستفيد من تجربتي هذه حتى ولو كانت صغيرة بجانب تجارب أخرى لكنها مهمة بخصوصيتها ككل تجارب الحياة الإنسانية" (ونيسي، ز. 2012: 124). فهي تريد التعبير عن ذاتها كامرأة مؤثرة متأثرة وترغب في أن يعايش القارئ تجربتها، خاصة إذا كانت "هذه التجربة نظيفة لا عار فيها ولا عيب ولا ابتذال، وفيها عبرة ودرس للأجيال" (ونيسي، ز. 2012: 123)، وهي تهدف لكسب ثقة القارئ عندما تقر أنها ستبيحه دخائل نفسها في تدفق صادق للذكريات محققة الوظيفة الاعترافية التي تتيح للكاتب أن يفرضي بمكنونات حياته، وهي اعترافات لا يتقبلها المجتمع إلا من الرجل في أضيق الحدود، إذ السيرة اعتراف منشور، ومجاهرة ونيسي هنا لا تعني سوى تحدّ معلن لتقاليد صارمة تفرض ثقافة أحادية، فهي تقول: "قررت أن أكسر كل الطابوهات، وأقول كل شيء بصدق وأمانة؛ لأنّ ما سأكتبه في هذه السيرة هو وثيقة اجتماعية تخص المرأة والمجتمع" (ونيسي، ز. 2012: 123)، لذلك نجدها تقضي بخبراتها المترسبة في فضاء مكبل بالقمع والقهر، منتهكة حاجز المسكوت عنه، حينما تعود إلى ذكرياتها الضاغطة على زمن الكتابة عبر المكاشفة والمصارحة لتتير لنا دروبا معنوية في مسيرة المرأة الجزائرية وكسر الصورة المحمولة في الذهن الذكوري عن المرأة يقول (تيري إيجلتون): "بالرغم من أن اضطهاد النساء هو واقع مادي فعلا، ومسألة أمومة وعمل منزلي، وتمييز في العمل، وأجور متباينة، إلا أنه من غير الممكن اختزاله إلى هذه العوامل، فهو أيضا مسألة إيديولوجية جنسية، ومسألة الطرائق التي يصور بها الرجال والنساء أنفسهم في مجتمع هيمنة رجولية" (مجموعة باحثين. 1995: 253).

على أنّ الكاتبة تحدّ من اعترافها السابق حين تقرّر: "إنني غير مستعدة أن أفتح صندوق حياتي بكلّ زواياه الخلفية، هناك خصوصيات تؤثر دائما أن تبقى كأمينة محفوظة في أغوارنا" (ونيسي، ز. 2012: 123)، والحقّ أنّه يندر بين كتّاب السير العرب من يملك جرأة

جون جاك روسو، فما بالك إذا كانت امرأة في مجتمع محافظ يُحصى عليها أنفاسها، ويصدر عليها حكم الجماعة بالرفض والوصم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ونيسي تتطّلع إلى إعلان ذاتها، وإيجاد معنى لوجودها، والواضح أن "السيرة النسائية بيّنت مسيرة كفاح المرأة، وحفظت لها مواقفها، وأبرزت كلّ ما يرتبط بالصّراع السياسي والاجتماعي، وفكرة الحرية" (التميمي، أمل. 2005). والكاتبة تريد أن تكون شاهدة على فترة من أهمّ مراحل حياة البلاد هي مرحلة إثبات الذات.

3. علاقة المرأة بالرجل:

تنهل زهور ونيسي شخصياتها من سيرتها الذاتية كمجاهدة ومناضلة ملتزمة بالأبعاد الحضارية (شريبط، أ. 2008: 27)، فهي تعترف في مقدّمة (من يوميات مدرسة حرة) أن أعمالها "تقوم على عنصر تواجد المرأة في تقاسم أدوار الفعل والحدث، ومسألة التّكافؤ مع الرجل في ميدان المعركة" (ونيسي، ز. 2008: 18)، بل إن قضايا المرأة هي مفتاح إبداعها، فهي تقول: "وبما أنّ لكلّ روائيّ مفتاحاً لفهم شخصيات الرواية، حيث يعتبر المحرّك الديناميكي للحياة وأحداثها وعقدتها، فإنّ مفتاحي كان دوماً المرأة والإنسان بشكل عامّ، ليس كموقف إنسانيّ أو اجتماعيّ محدّد، ولكن كذاكرة كجرح كحالة إنسانية" (ونيسي، ز. 2012: 478)، بمعنى أن الكتابة ليست ترفاً فكرياً بقدر ما هي وسيلة نضال.

وقد أخذت المناقشات الجارية حول إصلاح المرأة وعلاقتها بالرجل: شكل متناقضات مشدودة بقوة نحو هذا الطّرف أو ذاك. ولكنّها قلّما استطاعت التّقلّت من هذه النّظرة، لتتنظر إلى المسألة من حيث هي واقع مجتمعيّ قائم، ومحصّلة سلسلة من التّراكمات التّاريخية الموروثة. مع العلم أنّ قضايا المرأة هي في جوهرها قضايا إنسانية اجتماعية لا تنفصل عن قضايا الرّجل؛ لأنها جزء أصيل من الوجود الاجتماعيّ للإنسان.

3.1. المرأة في مواجهة المجتمع والاستلاب الذكوري:

نعثر في غالب كتابات النّساء على صورة للذكر الذي يضع للمرأة قالباً صينيّاً جاهزاً لا تخرج عن مقاسه، وعلى أنه رأس القوى المعيقة التي تحول بينها وبين حريتها. وفي حالات أقلّ تنمّاهي المرأة في نظرتها إلى ذاتها مع نظرة الرّجل، بل و تستكين إلى واقعها المستلب، وفي حالات أرقى، أن معركتها باتجاه التحرّر لا يمكن أن نحقق الانتصار إلا

بخوض الصّراع إلى جانب الرّجل ضد أشكال التّخلف التاريخي والاجتماعي (أبو نضال، ن. 2004: 9-10).

لطالما بدا للمصلحين أن العلاقات غير متكافئة بين الرّجل والمرأة أمام سطوة البناء الاجتماعي وآلياته، كالعادات والتقاليد والبنى الطبقية والأبوية، التي اعتبرت المرأة رمزا للغواية ورمزا للشرف والعرض، فخضع سلوكها للوصاية والحراسة الذكورية؛ تُبثّ حولها العيون وتحصى عليها الأنفاس، وكان من جريرة ذلك أن أصبح الرّجل هو عقل المرأة و يدها، وصارت هي مكنة للإنجاب والعمل المنزلي، وبدون الرّجل ستموت من الجوع (فراج، ع. 1982: 45)، وثمة دائما امرأة لم يكتمل نضجها ووعيها، تريد أن تنمرد على الواقع، فلا تعرف كيف. وترى ونيسي أن "المرأة طيف داخل عقل الرّجل يخفية متى شاء، ويظهره متى شاء. يؤرّقه عندما يتمرد ويعذبه عندما ينشد شيئا من عبق الحرية والعدل، طيفٌ يجب أن يظلّ قابعا كالظلّ لا يستقلّ بفكر ولا يتحرّك بإرادة" (ونيسي، ز. 2012: 345). لدرجة أن الكاتبة تحمّل الرّجل هذه النظرة الدونية إلى المرأة، حين يساهم في تخلفها والظلامية المسلّطة عليها، فإذا كان القرآن قد كرّم المرأة أيّما تكريم والأحاديث النبوية قد دعّتنا لأن نستوصي بالنساء خيرا، فإن ونيسي تنقل لنا صورة قاتمة عن نظرة الرّجل إلى المرأة "كان الرّجل يخجل من ذكر اسم زوجته أو حتى الإشارة إليها، فيعتذر عندما يضطرّ لذكرها قائلا: عبادي حاشاك أو عفاكم الله، وكأنني به يذكر عبدا من عبيده، أو شيئا قدرا أو مرضا معديا (ونيسي، ز. 2012: 72).

من أجل كلّ ذلك ظهرت الجهود الإصلاحية للخروج بالمرأة من منطقة الظلّ، وسلطة المنع والحجر إلى إثبات الذات. ولم تكن الثورة لتحدّ من السلطة الأبوية؛ فالكتابة تروى أنها - وهي مناضلة - قد اضطرت لأخذ والدها إلى الناحية الثالثة، لتبرّر أنها لم تكن تلهو " وهكذا نجد المرأة مرة أخرى أمس و اليوم تحتاج إلى تقديم الأدلة والبراهين على استقامتها وبراعتها في الوقت الذي لا يطلب من الرّجل أية تبريرات على حركاته وسكناته" (ونيسي، ز. 2012: 176).

هذه النظرة جعلت الإبداع النسويّ يمثّل خنادق حرب جاهزة على الدّوام، تضع النّساء في جانب والرّجال في خنادق الحرب المواجهة (أبونضال، ن. 2004: 43)، بل قد طغى السلوك الذكوري على سلوكيات كثير في النساء، إلى الحدّ الذي تصدّعت فيه الأنوثة الرقيقة،

وصارت المرأة تتذمّر من أنوثتها التي خلقت بها وترى في الأنوثة استمراراً لتضعيف المرأة وتحقيرها أمام استبداد الرجل في المجتمع.

إن زهور ونيسي ترفض مثل هذا الفكر الأنثوي لأنه "فكر مريض متطرّف، يطلب المستحيل، ولا يحصل على شيء أبداً، بل إنه يكون أحد أهم الأسباب في خلق الصّراع بين أفراد الأسرة الواحدة" ثم تعترف: "لا أحمل فكراً أنثوياً، وليست لي الرغبة في أن أكون رجلاً، أو شبيهة بالرجل، فمن قال إن الرجل هو مثلي الأعلى؟ كلا إن مثلي الأعلى أن أكون إنساناً، أريد أن أكون أنا كما خلقتني الله" (ونيسي، ز. 2012: 318).

3.2. مسألة إنجاب البنات:

يرى أغلب المصلحين أن إخراج موضوع إصلاح المرأة خارج المتطور الديني والأخلاقي يعدّ تجاهلاً قصدياً لعلاقة الرجل بالمرأة في سياقها الحقيقي، فما تعانيه المرأة من ركام العادات والتقاليد لا يكسب أية قداسة دينية، فإذا كان القرآن قد فصل في قول الله تعالى "(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50))" الشّور بالآية 49-50، فإن ونيسي تستعيد رصيда من وقائع نظرة المجتمع إلى إنجاب البنات، والاحتفاء بالذكور، من خلال تجربتها الشخصية، فبرغم رضا والدها بإنجابها لخمس بنات، فإنها تصوّر امتعاض الأهل قائلة: "كان والدي سعيداً حتى وهو ينجب البنات دون الذّكور في مجتمع يكفر بالبنات، ويتزوج الرجل فيه عدة مرات طمعاً في إنجاب الذّكر، لأنه يعتقد أنه الوحيد الذي يمكن أن يحمل اسم العائلة والعرش من بعده" (ونيسي، ز. 2012: 63-64). ثم تردّد الرغبة في إنجاب الذّكر إلى نظرة قديمة هدفها الحفاظ على أملاك الأسرة. أما والاستعمار قائم والأملاك ضائعة فكيف يصحّ هذا الاعتقاد؟ وتبرّر الكاتبة موقف أهلها من إنجاب خمس بنات فتقول: "أليس عبناً تربية خمس بنات في مجتمع يعتبر البنت قبلة موقوتة خطر انفجارها متوقع في كل لحظة؟ وما أحلى أن تصل هذه البنت إلى زوجها سليمة دون شروخ أو خدوش، إنه يوم المنى، حتى ولو أدّى ذلك إلى شيخوخة مبكرة" (ونيسي، ز. 2012: 25).

وتصف لنا الكاتبة مظهر الفتاة في مجتمعنا آنذاك قائلة "النساء في مدينتي محجّبات بملاءات سوداء من الرأس إلى أخمص القدمين، وعقاب من تخرّج دون جوارب سوداء تحت

الملاءة داخل الحذاء الأسود" الشبرلة"، عقابها أن تتركب على حمار يتّجه وجهها إلى ذيله، يدور بالمرأة المتمردة الشاذّة عن القاعدة عدّة دورات في سوق المدينة، والأطفال يعيرونها قائلين بفرح وتسلية: يا الملحفة بالحفاء" (ونيسي، ز. 2012: 22)، وإذا كنا نلمس شيئاً من المبالغة في هذه الصورة، فإنها تعطي انطبعا عن صرامة التّقاليد والتّشدّد في عقاب من تخرّج عنها. وقد أولى المجتمع المرأة مكانتها بحسب ما تنجب "إذا كانت المرأة من السّعداء وولدت ذكورا، فإنها تسمو شيئاً ما في المرتبة، ويطلق عليها أمّ فلان وأمّ البنين، وأمّا إذا كانت ولودا للبنات، فإنها ستحرم نهائياً من كلمة أمّ" (ونيسي، ز. 2012: 72)، وأشدّ من هذا التفضيل للذكر على الأنثى أنه "عند رغبة الرّجل في الانفصال عن المرأة، فإنه لا يطالب إلا بحضانة الذكر" (189)

3.3. قضايا الزواج والطلاق:

ظلت علاقة الرجل بالمرأة من زواج وطلاق رهينة الأعراف والتقاليد حتى في إطارها الشرعيّ، فابتعدت في كثير من الأحيان عن المفهوم الدينيّ، وبدت العلاقة بين الرجل والمرأة معطوبة، لا تقوم على المودة حتى داخل مؤسسة الزواج. خاصّة إذا دخلت المرأة هذه المؤسسة مكرهة لا حقّ لها في اختيار قرينها، وتلك هي هواجس الأنثى التي جعلتها تعيش المعاناة والاغتراب بأبعاده الحسية والنفسية، بعد أن مد الواقع الاجتماعي سلطته على آفاقها وتطلعاتها.

وقد دأبت زهور ونيسي في كافة رواياتها على رفض الصورة النمطية للمرأة الجزائرية، حين تغدو المرأة ظلاً للرّجل، وتتسم بالإنجاب المتواصل والتّضحية والاهتمام بالأكل وعدم الخروج من البيت وسيطرة الأمية عليها، ونظرة الرّجل إليها على أنها متاع مملوك لا حقّ له في التّنعّم بمباهج الحياة. تقول الكاتبة: "أتذكّر بشعور مضطرب حكاية أمّي مع صورة مصطفى كمال أتاتورك حين فاجأها جدّي تتأمّل وجه الرّجل بإعجاب، ليغضب ويجرّها من شعرها خارج الغرفة، وهو يدمدم: تحمّلين في الرّجل دون حياء لم يبق إلا أن تنتظري هكذا إلى أمثاله في الشّارع" (ونيسي، ز. 2012: 93). وهي صورة من القمع الذي مارسه السّلطة الأبوية على المرأة، كما تتوارد إليها صورة أختها التي تزوّجت دونما مشورتها قائلة: "أتساءل اليوم: هل كانت أختي بائرة أو عانساً؟ كلا.. هل كانت دميّة؟ كلا.. هل كانت أميّة؟ كلا.. لقد كانت متعلّمة جميلة ذات سبعة عشر ربيعاً" (ونيسي، ز. 2012: 85).

كما تعرض الكاتبة لقضية الطلاق وتعدد الزوجات ممثلة غبن المرأة واستغلالها مستدعية صورة العمّ عباس البالغ ستين عاما حين طلق زوجته ليتزوج من فتاة في الرابعة عشر من عمرها، بل وتدين خداع الرجل للمرأة وعدم احترامها من خلال رصدها لتجربتها الشخصية في زواجها الأول بأحد المعلمين بالمدارس الحرة، واكتشافها أنّ له عائلة وأنّه متزوج، متسائلة: "...كيف تُفسّر هذه الإساءة؟ أن يحصل الرجل على أية امرأة فقط لأنه أراد ذلك وبطرق ملتوية فيها من العشّ والخداع أكثر ما فيها من الصدق والنية الصافية.. أية امرأة تحت تصرّفه لأنه تشبّع، حسب المحيط الجاهل، بفكرة أن الشرع يسمح له بذلك... ثمّ أليس أنانية من الرجل أن يحصل على امرأة في كل مدينة وكأنها متاع؟" (ونيسي، ز. 2012: 145)

4. المرأة والمشاركة في الحياة العامة:

4. 1. الثورة كمنفذ للتحرر الاجتماعي:

كانت الثورة نفيرا عامّا، فقد انخرط أبناء الوطن معاً، نساء ورجالا في المعركة، وكان هذا كفيلا بنقل وضع المرأة إلى حالة أرقى، وتغيير نظرة المجتمع الذكوري لها، هذه الحقيقة عبر عنها المناضل عباس أوزيغان، حين روى كيف أن نساء بيته انكشفن على الرجال الجرحى لأول مرة، للعناية بهم، وبذلك فإن فعل الثورة جعل المرأة تقطع في سنوات ما كانت تحتاج إلى قرون لتجاوزه (أبو نضال، ن. 2004: 277)، ممّا حدا بعائدة أديب للقول: «لقد برهنت الحرب حقّا أنها كانت الفترة الذهبية في تاريخ المرأة الجزائرية؛ إذ إنّها في أعقاب اندلاع الثورة، ظهرت تغييرات مفاجئة شاملة، وبعيدة المدى في وضعية المرأة» (بامية، ع. 1982: 205) عجّلت بفكّ الكثير من قيودها.

لم تبق المرأة في نظر "زهور ونيسي" هامشية في حياة وطنها بل قوة فاعلة فهي تقول: " وخير الروايات عندي ما كان مستمدا من الذات مع بعض التغيير و التحوير، حيث يمتزج صدق المعاناة بالحرارة العفوية" (فتوح، ع. 1994: 71)، ولم تعد المرأة تؤدّي دور الضحية المأمورة، ولكنها تقوم بعمل نضاليّ بطوليّ عن اختيار وإرادة حرّة، فقد حملت السلاح، ووزّعت المنشورات، وداوت الجرحى، وتعرّضت إلى أبشع أنواع الاضطهاد والاغتصاب والقتل، وشاهدت فلذات أكبادهما يعدمون، وزوجها يُقتاد مكبّلا "فانتزعت الفخر من الرجل،

ومن الاستعمار الذي ظنّها كتلة مهملة، لا وجود لها ولا حول لها داخل المجتمع" (ونيسي، ز. 2008: 19)، حتى لقد غدت المرأة المحاربة رمزا للبطولة، "فكان حضورها هذا دليلا بارزا على التحول الاجتماعي الذي وقع في البلاد، وفرض مساهمة كلّ مواطن" (سلمان، ن. 1981: 451)، وقد حرصت زهور ونيسي على الحديث عن نضالها، ونضال المرأة الجزائرية، مؤكّدة أن انضمامها إلى المقاومة كان انطلاقا من قناعتها بأن التحرّر الحقيقي للمرأة لا يتحقق إلا من خلال نضالها المشترك مع الرجل، من أجل قضية عامة. وهذه المشاركة وحدها كفيلة بتذويب الترسبات بين الطرفين، خاصة وأن الكاتبة تقرر انضمامها للثورة في السنّ الذي تفكر فيه الفتيات بحالة شبابهن وبالأثواب الجديدة وقصّة الشعر اللطيفة (ونيسي، ز. 2012: 127).

غير أن ونيسي ترى أن ذهنية الرّجل حول قوّته وضعف المرأة لم تتغيّر، على الرّغم من أنّ الثورة غيّرت الكثير من هذه المفاهيم، خصوصا عند اشتداد لهيبها، حيث أصبحت المرأة في مواقف كثيرة في يدها حياة الرّجل أو موته (ونيسي، ز. 2012: 167)، وتُورِد رفض الرّجل المناضل قيادة المرأة له، حتى بعد أن اكتسبت قوّتها المهدورة؛ فقد قال لها موسى بن السبع: «صحيح أنّك معلّمة أولاد، لكنني لا يمكن أن أعمل تحت مسؤوليتك، لأنك ولية وضعيفة» (ونيسي، ز. 2012: 173).

4. 2. المرأة والتعليم:

استأثر موضوع تعليم المرأة في العصر الحديث باهتمام جميع رواد النهضة العربية، ولم تكن المرأة الجزائرية لتلج زمن ربيعها، وتنعم بحريتها لولا خوضها في ميداني التعليم والعمل، فقد اكتسبت من خلال ذلك حريتها العقلية والاقتصادية، وزهور ونيسي ابنة الحركة الإصلاحية المستنيرة، فقد التحقت مع سواها من أبناء الجزائر وبناته بمدارس جمعية العلماء المسلمين التي اعترفت للمرأة بحقّها في التّعليم، فقد كان ابن باديس يعلم بالمدرسة الحرّة الصّغار والكبار، البنات والصبيان، بل ويترك الصّغار مقاعد الفصل كل مساء للكبار من أجل محو أميتهم. يقول ابن باديس: "إذا أردتم إصلاحها (المرأة) الحقيقي، فافزعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب السّتر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرّها، وأمّا حجاب السّتر، فإنه ما ضرّها في زمان تقدّمها، فقد بلغت بنات بغداد، وبنات قرطبة، وبنات بجاية، مكانا عليّا في العلم وهنّ مُتَحجّبات" (ابن باديس، ع. 1929: 10).

هذا هو موقف جمعية العلماء من تعليم المرأة، فالأمة التي تخصّ الذّكر بالتعليم أمة تريد أن تطير بجناح واحد، لذلك فحتى النساء أصبحن يشهدن دروسا في الوعظ والإرشاد، "وقد راهنت الجمعية على المرأة، وكسبت الرّهان في محيط وعصر يعتبر خروج المرأة من البيت وتعلّمها طابو من الطّابوهات" (ونيسي، ز. 2012: 68). وهكذا فالكاتبة تدين الواقع القاسي الذي يضغط بقوالبه الحديدية على حياة المرأة منذ طفولتها، ويجعل صورتها هي صورة الزّوجة الرّاضخة، والأم المضحية، والبنت المرتعشة، أمام الأب أو الأخ دون مراعاة لحقها في التّعليم الذي يعطيها مزايا الجمال المعنوية، ويحدّ من دونيتها، وتصف تجربتها الخاصة مع التّعليم قائلة: "لقد علمنا والذي جميعا، ولم يحرم واحدة منا من المدرسة في وسط اجتماعي محافظ مغلق، يحرم المدرسة على البنت... فأعطى المثال الجميل لكثير من الأولياء الآخرين بالمدينة، وتركنا نتعلّم في أول مدرسة حرة، جمعية التّربية والتّعليم الإسلامية" (ونيسي، ز. 2012: 65). فمنع المرأة من التّعليم لم يكن قائما على نظريات المنظرين، ولا على أساس من الدّين، فالتّربية والتّعليم الصّحيحان هما الضّمان الذي لا يضرّ معه سفور المرأة، ولا ينفع بدونه حجابها، إنما كان نتيجة لعادات وتقاليد راسخة في الوجدان الجماعي؛ لذلك أدركت جمعية العلماء هذا الحلّ، فكانت "المؤسسة الوحيدة التي يدفع فيها الولد ثمن الدّراسة، والبنت معفاة من الدّفع تشجيعا لها على الدّراسة" (ونيسي، ز. 2012: 66)، وبلغ من اهتمام الجمعية بتعليم البنات وتوسيع مداركهنّ وتعزيز دورهنّ الاجتماعيّ - كما تقول الكاتبة - أن وضع الإمام ابن باديس مشروعا لإرسال بعثة طلابية من البنات لإتمام الدّراسة الثّانوية بمؤسسة بدمشق لولا أن المنيّة أَعْجلته (ونيسي، ز. 2012: 102).

لقد ركزت الكاتبة على رحلة كفاحها في التّعليم، وما قامت به من إنجازات، فهي تعكس لنا مراحل التّعليم بالجزائر، مسترَدّة مشوارها التّعليمي طالبة و معلّمة، مركّزة على عدّة ملامح تربوية كالمناهج والتّعليم الأجنبيّ، ومسألة تعليم البنات التي رأت فيها كثيرا من صور الحيف ووأد الطّفولة، "فالبنات دون العاشرة يصبحن مشروع نساء لا يحقّ لهنّ الخروج من البيت، ولا التعلّم، ولا اللّهُو الطّفولي، في هذه السنّ يجب أن يشرعن في التّفكير في إتقان مهامّ النساء" (ونيسي، ز. 2012: 21). فهذا الإقصاء للفتاة تكرّسه نظرة موروثية لا تمثّل الدّين في شيء. كما تناقش الكاتبة الرّأي القائل: نحن مع تعليم البنات، وتقدّمهن على أن يكون ذلك في إطار من القيم، فتقول: "يبقى الإطار محدّد الزّوايا، محدّد المساحة يخضع للقناعات

والمفاهيم المتباينة، ليصبح مع الأيام لا رائحة للحرية فيه" متسائلة: "لم لم توضع مثل هذه الشروط للرجل أيضا؟ (ونيسي، ز. 2012: 68)، ثم تعطي نماذج لكاتبات هنّ ثمار تعليم البنات كإنعام بيوض ونورة سعدي وأحلام مستغانمي، وزليخة السعودي، وصفية كتو.

وقد صوّرت لنا سيرتها كسائر السّير النسائية" تغلب المرأة على التسلط الاجتماعي الذي يعيق تقدّمها العلمي، وحصولها على حريتها الفكرية، التي مكّنتها من الإسهام السياسي والنّهوض إلى جانب الرجل بمختلف جوانب الحياة المتعدّدة" (عرايبي، ع. 1999: 414). كما ترى زهور ونيسي أن التغيير الحقيقي للجزائر بعد استقلالها هو في تكوين قاعدة ثابتة من المثقفين والمثقفات" و سلاح اليوم ليس سواعد قوية فحسب إنه ملكات نيرة و عقول عبقرية و كفاءات لأبناء الجزائر من رجال و نساء، كفاءات يجب أن تكون في مستوى هذه الانتصارات و هذه الحرية التي حلم بها الجميع و ضحى من أجلها الجميع" (ونيسي، ز. 2012: 290)

والملاحظ أنه "لم يبدأ طرح قضية المرأة بصورة فعلية في الرواية العربية النسوية إلا في منتصف الخمسينيات مع ليلي بعلبكي، وكوليت خوري" (أبو نضال، ن. 2004: 277)، ثم غدت الكتابة النسوية مسكونة بهاجس المرأة، وتحرّرها الاجتماعي والسياسي والفكري، مثلما نجد في أعمال حنان الشيخ، وسحر خليفة، ونوال السعداوي، ويلي العثمان، وغادة السّمان، وسلوى بكر، وغيرهن كثيرات.

أمّا في الجزائر "فقد جاء إقبال الأدبيات باللغة العربية على جنس الرواية متأخرا جدّا موازنة بالأعمال الروائية الأولى بالفرنسية، ويمكن اعتبار "من يوميات مدرّسة حرّة" لزهور ونيسي سنة 1979م كأول نصّ سرديّ طويل تكتبه امرأة باللغة العربيّة، وقد صارت المرأة الجزائرية صوتا لا صدّى لأصوات الآخرين مع ظهور روائيات من أمثال: جميلة زنير، وجميلة خمّار، وزينب الإبراهيمي، وزينب الأعوج، وأحلام مستغانمي، وفضيلة الفاروق، وزهرة ديك، داعيات إلى الإصلاح في الأدوار الاجتماعية التي تقوم بها المرأة مجسّدات عوالم الأنوثة بتشعباتها الحميمية والعامة.

4. 3. المرأة والعمل:

لم تكن طبيعة المجتمع الجزائري تسمح للمرأة بالعمل حيث سلطة العرف، وهيمنة المجتمع الذكوري. وترجع زهور ونيسي ذلك إلى نقص الوعي الاجتماعي والثقافي، حين يصبح معه تحرُّك المرأة مشينا عند فئة من الرجال وحتى النساء أنفسهن (ونيسي، ز. 2008: 18)، حتى وإن أكد ميثاق الجزائر بعد الاستقلال على مساواة الرجل والمرأة، فقد ظلت الحُجُب مضروبةً دون المرأة، إذ إن نسبة العاملات إلى غاية سنة 1977 لم تتعد 3.7 % من مجموع النساء، على الرغم مما قيل عن تطوُّر وضع المرأة منذ الاستقلال، مما يدلّ أن خروج المرأة للعمل كانت عملية عسيرة المخاض، لم يتقبَّلها المجتمع، وقد كان العمل والتعليم هاجسان مركزيان تناضل المرأة من أجلها. وتبيّن ونيسي الرّغبة المحمومة للمرأة الجزائرية في كسر القالب الذي وضعها فيه المجتمع، والكاتبة ذاتها تحاول أن تستوعب أحداث مسارها المهنيّ، وتدوّبه في خط تأويليّ مصرّحة بأنها "ترفض أن يقال (فلانة كأنها رجل) دليل على الكمال الإنسانيّ، وإلغاء لصفة المرأة في تأدية مهامها"، ثم تؤكد قدرة المرأة على المواءمة بين العمل الخارجي، وتدبير شؤون البيت، حتى وإن تبوّأت مناصب عليا، قائلة "بقدر ما كنت لبؤة وأنا وزيرة أسير القطاع والمسؤولية الجديدة، بقدر ما كنت وأنا ادخل إلى البيت مساء أنقمص رغما عن إرادتي شخصية القطّة الأليفة، أو المرأة في يجب أن تفصل بين كينونتها في العمل، وكينونتها في البيت" (ونيسي، ز. 2012: 351)، وتتحدّث الكاتبة بعد الحديث عن منصبها كأول وزيرة- عن نساء تولّين مناصب عليا في الدولة بعدها، متحدّيات ذهنية المجتمع، في قولها: "وحصل أن فُتحت الأبواب بعدي لعشرات من النساء أصبحن وزيرات وكاتبات دولة بحقائب وزارية هامة، وجرالات، ورئيسات مجلس الدولة وسفيرات (ونيسي، ز. 2012: 355).

هكذا استطاعت المرأة الجزائرية التّغلب على النظرة التّراكمية الموروثة تجاه عملها، بعد أن حُجبت عن الحياة العامّة والعمل، فأصبحت لها إمكانياتها المتعدّدة في مجال عملها كمدخل لنهضة المجتمع الجزائريّ.

خاتمة:

إن سيرة الكاتبة تعبير حيّ وصادق عن الواقع التاريخي لامرأة عاشت بوعي، وشاهدت انتقال المرأة الجزائرية السريع من حياة الحريم بأفقها الضيق القائم على أساس الاهتمام بإرضاء الرجل إلى الحياة العامة التي تهتم بالمساهمة الفعالة للتخلص من سيطرة العادات والتقاليد البالية.

وهذه المذكرات وثيقة اجتماعية، أقرب إلى أن تكون صرخة ملتاعة تترفع دفاعا عن حقوق المرأة، في قدرة على القول والمجابهة، من خلال حديثها عن الزواج والطلاق، وأوضاع المرأة الاجتماعية، ونموذج المرأة الأمية والمرأة المثقفة، وعلاقة الرجل بالمرأة، وتكريس صورة المرأة كضحية داخل المجتمع الذكوري، وربط حركة المرأة الجزائرية بالمجتمع عامة، وبالقضية الوطنية، بوصفها قوة فاعلة مؤثرة في مسار البناء والتحرير، لذلك توجز أهم القضايا الاجتماعية في قولها: «إن هناك قضايا اجتماعية كثيرة تشكّل خطرا كبيرا على الأسرة، لما يعانيه أفرادها من عذابات وضياح، مثل: تعدد الزوجات، والطلاق التعسفي، والحضانة، ومنع المرأة من حقّها في العمل، وإجبارها على الزواج المبكر، وحتى بيعها طفلة لرجل في الثمانين تسديدا الديون الأب" ثم تتساءل: "كيف للإنسان العربي أن يتمتع بالحرية، ونصفه لا يزال يعاني من العبودية؟" (ونيسي، ز. 2012: 343-345)، وهي القضايا نفسها التي عالجها رواد التنوير في العالم العربي.

سعت زهور ونيسي إلى تأكيد جدارة المرأة بالحرية من خلال عرضها لسيرتها الذاتية وتجاربها الشخصية مؤكدة أن المرأة صنو الرجل في المقدرة، داعية إلى إعادة النظر في منظومة من القيم والكوابح الاجتماعية، بل إن الكتابة نفسها هي أحد المداخل نحو حريتها، إنها فعل تمرّد على صورة الفتاة المعلّبة داخل منظومة اجتماعية. والكاتبة تريد أن تكون شاهدة على فترة من أهم مراحل حياة البلاد هي مرحلة إثبات الذات محاولة التعبير عن ذاتها كامرأة مؤثرة متأثرة وترغب في أن يعايش القارئ تجربتها، وهي تهدف لكسب ثقة القارئ عندما تقرّر أنها ستبيح دخائل نفسها محققة الوظيفة الاعترافية التي تتيح للكاتب أن يفضي بمكنونات حياته حين تقول: "قرّرت أن أكسر كل الطابوهات، وأقول كل شيء بصدق وأمانة؛ لأن ما سأكتبه في هذه السيرة هو وثيقة اجتماعية تخص المرأة والمجتمع" (ونيسي،

ز. 2012: 143). لذلك نجدها تفضي بمواقف فكرية وظروف محيطية بالمرأة والمجتمع، من خلال خبراتها المترسبة وذاكراتها الضاغطة على زمن الكتابة عبر المكاشفة والمصارحة. ومن تمام القول، إن القضايا الاجتماعية للمرأة الجزائرية ومعاناتها في سبيل تحصيل حقوقها إنما هي ذاتها قضية الرجل الجزائري، وقد أدركت زهور ونيسي هذا الأمر مصرحة: "لا أحبذ تقسيم قضايا المجتمع بين قضايا نسائية وأخرى رجالية... إن قناعاتي تركز على وضع المرأة داخل مجتمع له خصوصياته وتاريخه وثقافته ونظرتي للتقدم المرجو بالنسبة للرجل والمرأة معا" (لونيسي، ز. 2012: 317-318) فالخصم الحقيقي للرجل والمرأة معا هو ذلك التخلف الجاثم على الصدور على تباين أشكاله، وتحرير المرأة وممارستها لحقوقها الطبيعية والإنسانية لا يفارق تحرر الرجل.

المصادر والمراجع:

الكتب:

1. أبو نضال، نزيه. (2004). تمرد الأنثى في رواية المرأة العربية. ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الأردن.
2. أديب، بامية عايدة. (1982). تطور الأدبالقصصي الجزائري. تر: محمد صقر. د. ط. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.
3. التميمي، أمل. (2005). السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر. ط1. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب.
4. خليفة، إجلال. (2008). الحركة النسائية الحديثة. د. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.
5. فتوح، عيسى. (1994). أدبيات عربيات. ط1. منشورات جمعية الندوة الثقافية النسائية. دمشق.
6. فراج، عفيف. (1982). الحرية في أدب المرأة. ط2. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت.
7. مجموعة باحثين (1995): نظرية الأدب. ترجمة ثائر ديب، د. ط. وزارة الثقافة والإعلام. دمشق.
8. نور، سلمان. (1981). الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر. ط1. دار العلم للملايين. بيروت.
9. ونيسي. زهور. (2008). من يوميات مدرسة حرة. وزارة الثقافة. الجزائر.
10. ونيسي، زهور. (2012). عبر الزهور والأشواك: مسار امرأة. ط1. دار القصة للنشر. الجزائر.

المقالات:

11. ابن باديس، عبد الحميد. (نوفمبر 1929). "الرجل المسلم الجزائري". مجلة الشهاب. ج. 1. م. 5.
12. شريط، أحمد شريط. (2008). "نون النسوة في الأدب الجزائري". مجلة آمال. وزارة الثقافة. الجزائر. ع. 2.
13. عرابي، عبد القادر. (1999). "المرأة الغربية بين التقليد والتجديد". من كتاب مريم سليم. "المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر". ط1. مركز الوحدة العربية. بيروت.